# النظرة الميتة

للكاتب الفنلندى

## ميكا فالترى

ترجمة : سعد مكاوى

— ١ —

في صالة البيت التي غيرها ضوء حزين مجرد من الحياة بعثه مصباح عار مدلى من السقف ، كانت على المائدة بقايا الطعام ، وماء الحساء ، وسلة بها شرائح ثقيلة من الخبز وثلاثة أطباق ، عندما ظهر على العتبة ذلك الرجل المجهول بعد غروب الشمس في ذلك اليوم من الربيع .

كان واضحا أنه جاء من بعيد ومشى طويلا حتى غطى ساقيه وحذاءه الإعياء ، ثم اجتاز القرية كلها قبل أن يصل إلى البيت المنفرد في طرف المزرعة ، وألقى تحية المساء بصوت خافت وهو يكشف رأسه ويجفف جبينه ، وظل واقفا في فتحة الباب وقبعته في يده .

وكان في الصالة الواسعة ثلاثة أشخاص : رجل لم يتخط الشباب لكن له وجها مسرحيا وتحت عينيه التثنين تروغ نظرتهما حبوب زرقاء ، وكان يقرأ صحيفة فتحاها طويلا وألقى نظرة خاطفة على الغريب ، ثم عادت نظرته الهاربة تنسب على صحيفته ، وعجوز كان مشغولا بإصلاح الشبكة الممزقة في مصيدة السمك ، فقطع عمله وفحص الغريب دون أن يرد تحيته ، ودون أن يبدي في وجهه المجعد الهرم فضول ؛ وامرأة واقفة بين الموقد وسطل الماء الكبير ، وشعرها ممشط بإهمال ومشدود إلى الوراء بحيث يبدو وجهها عاريا غريبا كأنه قناع ، فرفعت عينيها بلونهما الأزرق البارد وتأملت الغريب في هدوء وذهول ، وردت وحدها تحيته .

أنزل الغريب المجهول ربطته من فوق ظهره وجلس قرب الباب إلى جانب الموقد ووضع ربطته وقبعته بين ساقيه ، ولم يقل كلمة .

وأخيرا سأله الفلاح العجوز :

— هل عندك من نبيذ ؟

وتعلقت به أنظار الثلاثة ، فقال :

— جئت أطلب عمل خادم في المزرعة .

شلق الرجل العصبي صحيفته فوق المائدة وتخلص من عصبيته وقال في احتدام قطيع :

— لا حاجة بنا إلى خادم !

نظر الغريب بازدراء مندهش إلى الرجل الذي فقد كل سيطرة على نفسه ، ثم أرسل نظرته نحو المرأة ، التي كانت رغم عروبتها الظاهرة شخصا خارقا للمألوف وأصلب من أن تكون امرأة ، وقال موجها كلامه إليها هي :

— رأيت إعلانا في الصحيفة .

فأيدته بإشارة من رأسها ولم تتغير النظرة الزرقاء الصلبة في عينيها ، لكنها نظرت إلى زوجها العصبي مجرد نظرة : فإذا بوجهه تتقلص وكتفيه تدوران وعينيه تنسحبان من حدقتيه ، إلا العصب المحتدم ظل صرقا في جبينه ، ثم لم يلبث هو أيضا أن أطرق وجها .

وسألت المرأة بصوتها الهادىء الحاسم :

ـ الى أين أنت قادم من بعيد ؟ .

تردد الغريب لحظة قبل أن يقول إنه قادم من الشرق ، وأمام الصاج عيونها الهادئتين الفرنتين أضاف اسم منطقة صناعية كبيرة .

ـ هل تعمل ؟

أجاب وهو يكذب دون أن ينظر نحوها بأنه ليس عاطلا ، فمضى الرجل المحنى بعد أن أشعل سيجارة وتقدم نحو الرجل المجهول الذي دخل بيته وفحصه من رأسه الى قدمه وهو ينفث الدخان ، ثم سأله في جفاء :

ـ وما الذي جاء بك الى هنا ؟

لم ينظر الغريب نحو الرجل وظل محدقا أمامه دون أن يجيب ، فاحتدم ذو الوجه الرخو المتهدل :

ـ على من يطلب عملا أن يرد عندما يوجه إليه سؤال ... والشهادات ... والشهادات ، معك شهادات ؟ نحن لا نأخذ في هذه المزرعة أي متشرد يدق بابنا ! .

ونظرته الغاضبة هي التي جعلت الغريب ينحني فجأة كم هو رث الثياب محروق الحذاء ومغبر ، فانكسرت نظرته وهو يقول بصوت خفيض :

ـ عندي شهادتان .

وبحث في صدره دون أن يرفع رأسه حتى أخرج محفظة من الجلد وتناول منها ورقتين مطويتين وأطرافهما متآكلة ، فأخذهما صاحب المزرعة وفحصهما تحت المصباح ، ثم قال في ضحكة :

ـ بـــائس ! لم يبق صالحا في مصنع ، والشهادتان قديمتان جدا ، أحدثهما تاريخها من ثماني سنوات ! ... أين كنت في هذه السنوات الأخيرة ؟

كان يحسر في الكلام من الانفعال ، واختفت الآن كل رخاوته وتحددت ملامحه وصار حيه ذكيا ، فهو الآن صاحب الأرض الواثق من نفسه والشامخ بقيمته ، ويرمي عصاه .

ـ أولئك المتشردون !

وما أن قال ذلك حتى كان الفلاح الشيخ قد نهض واقفا في تحفز ، ووثبت المرأة أيضا من

وخلعها الصانع الذي برزت عروق صدغيه وسال من ركني فمه اللعاب ، وهو يدق الأرض بقدمه ويلوح بذراعيه مائلا في صراخ عصبي :

ـ إن بيتي ليس ملجأ للمتشردين ! ... هل يتصور أحد أني لا أعرف كيف أقف على قدمي دون مساعد ؟!

ـ رويدك يا فريد !

قالتها المرأة بصوت خفيض لكنه حاسم وواضح ، فتقطعت بها كلام زوجها الذي تعثرت الكلمات في حلقه وارتبك وراح بصره في اتجاه كتلة الخشب الملتهبة في الموقد ، ثم ركل الصفيحة المشتعلة ، وأخذت ترتعد وحدها الكترونيا وذبت الصمال ، ونظر الى امرأته فقرأ الغريب في هذه النظرة بعضا من حملته تشيح ببصره لفرط عمقها ومرارتها .

واندفع سيد المزرعة خارجا وصفق الباب وراءه بضربة عنيفة ، فنهضت المرأة مهرولة وخطت الى النافذة وعقدت فوقها ذراعيها وقالت :

ـ نحن في حاجة الى مساعد في شئون الزراعة المختلفة وقادر أيضا على أن يتولى وحده المزرعة ... وليس هنا غيرنا نحن الثلاثة ، فالمحور يعمل ما يستطيع ، وهو ... زوجي ... يحاول أن يحصل نصيبه من العمل ، لكن على نحو غير منتظم ... عندما يستطيع ... كان مريضا ... ولا هو ولا أنا كنا في الأصل مزارعين ، ولا نكاد الآن نقوى على الاحتفاظ بخادم حتى الخريف ، فإذا كنت فوق هذا حريصا على الأجر ، فإني أخشى ؟؟

قال وقد أدرك الموقف بوضوح :

ـ يرضيني أن أنتظر حتى الخريف بأقل ما تسمحين به ، ثم بعد ذلك نرى .

ألقى المحور نظرة السماء ثم جر قدميه الى الخارج ، وسدد الغريب نظرته في عيني المرأة اللامعتين بالصلابة والحيطة ، فقالت له :

ـ لا أريد أن أرى شهاداتك ... ماذا تعني الشهادات ! ... بالعمل وحده تعرف قيمة المرء ... كما أني لا يعنيني المكان الذي أقبلت منه في العهد الأخير وسبب رحيلك منه ... أن

هذا لا يعني احدا سواك ... تكهني أنك تراث
املاي وحدك .

وفي ركن المكان كان سرير عالم له انه سيكون مرقده حتى يشيع الدفء في الليالي وبعد ذلك سنقل الى المخزن ، وانها ليست طباخة بارعة ، وان الطعام سيئ في المزرعة في الربيع ، فليق ان اوصاه كل هذا !

وفي سكون بعض المجهول وعلق معطفه في المسمار وحمل وطنه الى جانب السرير ، متهمسة ومة البهيمة ورمته بنظرتها وهي مترددة ، ثم انسحبت الى حجرتها .

وكان جالسا فوق طرف الفراش عندما عادت المرأة بعد قليل ، بعد أن كان قد نزع حذاءه الرطب الموحل ، فحملته المرأة قرب النار ، ثم وضعت فوق السرير بجانب الرجل ملابس نظيفة وهي تقول له :

ـ جرب هذه الملابس لعلها توافقك ، وتستطيع في الصباح أن تأخذ حذاء من مدخل البيت ، فان هذا لم يعد يصلح للاستعمال ... وهنا في الركن قرب الموقد ستضع ملابسك التي تحتاج الى الغسل .

والتقت نظرته الحادة بنظرتها الساردة ، فقال :

ـ اسمي انطون ..

قالت قبل أن تتركه للنوم :

ـ مرحبا بك في المزرعة يا انطون .

— ٢ —

المرء الآن ينصرف في المزرعة تصرف انسان يعمل في رحمة العمل في محو كامل لماسه ، فهو يحصر نفسه في حدود مهمته بلا فضول ، وهو رغم غربته يعمل ، وفي الوسع الاعتماد عليه دون أن يطالب هو بالثمن .

وقد تبين « انطون » من فوره سوء الحال في المزرعة التي كانت تنزلق بسرعة نحو الخراب ، وعلم من الفلاح المحور او والد « الفريد » كان سكيرا مدمنا ، وقد حاول ان يسرق خاتم الخطبة من اصبع امرأته المتوفاه في تابوتها ؟ ... وبعدها اختفى ولم يسمع عنه عنه احد ... لكنه ترك لابنه دمه كما ترك له ميراثه ... ار « الفريد » يسول حمره في بعض الاحيان باستعطاف وذلة ، ويهيم طوال ايامه في بحار الذهول ، وقد يبدو له أن يشارك في شرف العمل ، فيبدأ في حماسة ثم فجأة يتخلى عن كل شيء وينصرف الى هواجسه واوهامه ورهبته المجهولة في روحه المسكينة التي ما كان اصعب حياتها واتعاسها ، والتي تعيش من يوم الى يوم ومن سنة الى سنة أن تمثل انوثتها لكي تعبر منها روحها المجهول الذي تحكمه وتروضه ، والتي تتارك في الحقيقة كل لحظة تستطيع فيها ان تكون وحيدة وبعيدة عن ذلك الزحو المريض الذي يطاردها بنساباته وتوسلاته ووجوده الكذابة ، روحها ، لعنة حياتها ..

وكانت حجرة السيد المريض من داخل حجرة امراته ، ففي ذات ليلة صحا « انطون » من نومه على محادثة بين الزوج والزوجة من خلال الباب الفاصل بين الحجرتين ، وكان الرجل بيديه يدق الباب وهو ينتحب ويتوسل ، والمرأة تكلمه من خلال الباب الموصد عليه ، ثم ارتفع صوت الفلاح المحور هو الآخر وبقبضته تضرب الحائط من الدهليز ، وهو يزعق في ساكن الحجرة الداخلية :

ـ اسكت ام أحبتك فاصرك !

وعند هذا التهديد حدثت ثارة الرجل المحبوس ...

كانت المرأة تعطف وهي تتصلب وتتشدد ، ولما كان خادمها الجديد القادم من بعيد هو ايضا قد عرف العذاب في ماضيه الذي هرب منه ، فقد جاشت نفسه بالعطف عليها ، وصار العمل المضني من أجلها لذة ..

وجاء يوم كسر الرجل المحبوس فيه الباب وسرق نقود زوجته وهرب ... اختفى اسبوعا كاملا ظلت المرأة خلاله عاملة لا تعرف الراحة ، وهي تحاول سد ما بقي في أوقاتها من عذوبة ومن ضعف ... وفي عيني « انطون » صارت جميلة في كبريائها وارادتها وعطائها !

ثم جاء من القرية خبر يقول ان « الفريد » هناك في حالة سكر مطبقة ، فذهب اليه « انطون » والفلاح المحور وعربا رفاقه السكارى ، واخذ « الفريد » نفسه يبكي من

بحرقة وهو يرمقه والسعال العنيف يمنعه من همه ، ولم يكف عن صراخه المضني الا عندما عرفه عجوز المزرعة وراء أذنه بمراوته فاسقطه وهو يلوى والزبد في فمه ، وعادا به الى المزرعة في موكب صامت ، فمشى بينهما وهو يعثر ويكي ضحاياها كلها وفمه العجوز الصارم ..

وفي البيت استقبلت المرأة رجلهما العائد بنظرتها الشاردة الزرقاء ، نظرة صامتة ، بلا رجاء ..

وعرف « التونسي » في هذا الموقف أن صاحب المزرعة المسكين كان قد مضى سنة في المستشفى ، وأنه وزوجته كان لهما في المدينة بيت جميل وحياة مترفة ، الى أن قال لها الأطباء ان حياة المزرعة انسب لزوجها المختل الأعصاب ، فاشترت بما بقي من مالها هذه المزرعة ، منذ ثلاث سنوات ، هي التي لم تكن رأت في حياتها بقرة تحلب .. زوجها ، بلا معين ، كالعجب ، وفي كل يوم كان حال زوجها يزداد سوءا ، وتزداد هي اصرارا على البقاء في المزرعة التي صادرت كل حياتها ..

وبعد حادث العربة ــ ولم تكن عربته الأولى ولا العاشر ــ تفاقمت حالته وسيطر كل همه من الحياة أن يغازل امرأته بوسيلته المرتعدة الذليلة ، فهو يبدو خفيا زاحفا على ركبتيه وهو يستجدى ، ويظل امامها بنهار ويسهر حتى تضعف له ، ثم تخرج من عنده شبه محمومة هي الأخرى .. هناك وراء الباب الموصد بالمفتاح يحترق حيوانها المطيع وسادتها .. يقرع الباب بأظافره ، ويستول جسمها .. ذلك الصوت كان يوما ما عزيزا عليهما ، وهو الآن يمثل سطوة كل ما هو انساني وطيب فيهما .. صوت تكلمها هي وحدها .. وفي الليل تمضي وتاخذ المفتاح وتفتح الباب وتدخل .. وفي الظلمة تمضي على ذراعيها في الحال بدأن طريقا مرهقا ، ألهما زوجين أمام الله وأمام الناس ! .

في الماضي كانت تفعل ذلك محاولة ان تخدع نفسها ، حتى تخرج من ذلك الهم اللاهب وعودا وتأكيدا بحياة جديدة ، لكن كل وعد كان يمضي الكلومة ، وكل عهد كان مجرد وسيلة لئيمة .. وعندما تكتشف آخر الأمر أن ارادة زوجها مثل جسمه بلا عضلات ، رخوه مرتعدة عدمت نفسها ايضا وساءت ان تصمد ان وجوده وعهوده كتب على الأمل حقيقية وصادقة في ساعة النطق بها ، كانت كلمات حب ، حب يناشدها ان تأمل وتصبر .. تصورت ان حنانها سيمنحه شيئا من القوة ، من القدرة على العمل وعلى تروض الذات . لكن هذا ايضا لم يكن غير الكلومة ولم تكن هدف كل صراعة من صراعاته الا اضعاف ارادتها وتحطيم مقاومتها واخضاع كيانها للروتين السعار المحموم .. وهي الآن ان دخلت على حيوانها دخلت بهيمة ، صماء وباردة ، بلا حركة ، بلا دمعة ، وتمنح جسمها المطلوب كانت تشترى للمزرعة اياما من سلام ظاهري خادع ، لم تعود الى حجرتها لتضم لعبها أن تكون هذه هي آخر مرة .. كان ذلك هو كل الماضي ، اما الآن فهي تعرف انه لن ينالها أبدا منذ اليوم ولن يشرب من كأسها غير مرارات الحقد والصمت !

لم تعد في نظرها مريضا تعسا ومسكينا وغير مسئول عن اعماله ، هذا هو منطق حضارة المدن وانحلالها الذي يطبعه في الروح ، حيث تقول الأطباء الكذابون ان القسوة والوساخة والشر والرعب والكذب وعدم المسئولية هي امراض ايضا ، ويرددون مثل حالة زوجها بكلمات جوفاء .. يقولون كيان قابل بطبيعته للامراض المتسلسلة .. ادمان .. والى .. كلمات خطيرة كانت في الماضي تتسلل الى نفسها الرحمة في ظلال علمي ، اما الآن فهي امرأة جديدة شاع فيها حتى ايمانها بهذا الكلام المحل !

انه وحش يلتهم الحياة ويجردها من كل جمال !

والطبيعة كالقسوة في مفاصل هذا الحيوان المجهول الذي عصف بحياتها والعدها حياة الملل دون ان تعوضها في الرعب شيئا مثلي، به وجودها .. لقد ضاع هذا الرجل واسمى ! وطبها ، وحدها ، أن تصنع المستقبل ..

— ٣ —

لاول مرة تكلما عن شيء غير العمل والأرض والحصاد ، وكانا قد يقرا البطاطس في الارض لم تناولا الغداء بعد حاجة الماء واستلقيا في ظلها جنبا الى جنب يتطلعان راحة ، فغالبه صاحبة

المروعه لاحسرها ان أباها كان حمارا لميا في المدينة ، وانها كانت وهي تلميذه في المدرسة تقرا الكتب وتؤمن بها ، وكانت تتنقل في سيارة ابيها ، وتقيم حفلات استقبال ... وقال لها ان اسمه لبس « التوبن » وانه ليس اعزب كما كذب عليها !

واحسا وهما شكلمان انهما صارا نصة واحدة في وجه الدنيا ، هذه التي تصارع الأرض وهذا العامل الذي يأكل سكينه ولا يحتمل الذل ، والذي تحتمل هي كل يوم اسبي مبيصه القفر على حافة العدول .

واعترف واعترفت ، مثلا في الشرق المعد له امراة وطفل في عامه السابع ، وهنا قصة موجعة من ماضي هذه المسكينة ، وكيف ظهر « المرشد » في حياتها وتروحها وانما نال ابيها بينا جميلا ... لقد احتجت منها امرته انه عطى صره من سانه في مستشفى الأمراض العصبية ، احجبوا عنها ذلك كما لو كان عارا ... ولم تكن هي الا سبب حمقاء مرهوه ، صاحت بالعريس ... وكانت تضحك من الماحلة وهو سكران ، بل شربت معه هي أيضا ...

كشف له كل الماضي وكل الجراح الدفينة وارتاحت له اثراب عن الجمرات الملتهبة في اعماق حياتها ، فعاد هو ايضا يكلمها عن بيته القديم القريب من المصنع الذي استقبل فيه ثماني سنوات ، ومن حديقة كانت لتتيب وكان يرويها في الماء بنفسه ... وكيف جاء يوم من العرض الماضي آخط فيه ... ورحل دون وداع ، تاركا المراة وابنها والماضي كله الى غير رجعة ...

محنة واحدة ، قلب واحد ، لقد جاء بالحب معه ، حب الأرض بعد موتها وبعثها هي أيضا ، المراة المحطمة ، ... المدينة التي حلبت في ماضيها الى موائد عامرة ولعبت لربات الكريستال وهي عارية الكتفين ! هي التي قرأت كتبا ودخلت اصحابات وتعلمت علوما ! كانت لنفسه جسدا وروحا وتعبر عنها تفصلها العصبي وتسترخي وجودها كله وتمضي ، على حين تلوب مرارتها وكبرياؤها الصلبة وتلين ...

لكن ساكن الحجرة الداخلية الذي ...

او كانت لي طبعه ان يبرر لهسا وهو يعرض باسنانه عقد اصابعه او يدعس ... في فمه وهو يعدو مسما على حذر يريد أن يلمس جسمها ، وها هي ، الآن ، والربيع الجديد يضرب في شرايينها الذي كان مطويا ، تعز منه ... للحياه .

- لا تلمس !

تركها خائفا من هذه الصرخة الجديدة الصارمة وارتد مرتعدا الى حجره ...

وسمعت بكاءه في وحدته ، في القفص المحكم الذي يحبسونه فيه من الليل الى الليل كما لو كان حيوانا ...

هناك ، في حالة المحموم المضطرب كان يظن هذه المراة الصلبة الارادة ويرغم لنفسه أنها هي التي ... حمانه واساءته لانها لم تحبه ولم تحن له ولم تشجعه على النجاح ، ويسجل في محبسه ... للذل الرهيب في نفسه ، يربط هو ... وراء ظهرها وتؤديها وكانت هذه الصورات المتاحه توحشه في حجره في الحقيقة ، وكانها الحجرة الصغيرة التي لا تزال وحدها تربطه بعالم العقل

وفي يوم من أيام الصيف دهش « النوبي » عندما رأى المراة في ثوب خفيف لطيف لم تلبس مثله منذ دخل بيتها ، بل كانت لتتبسم ، لاول مرة منذ رآها !

وجلست الى جانبه على سلم الحزن تكلمه

ــ لماذا هجرت بيتك وزوجتك ؟

كم عذبها وقتها في معرفة الجواب عن هذا السؤال ؟

كانت تريد أن تحمل ماضي هذا الرجل أيضا ملكا لها ، حتى لا يعود يفصلها عنه شيء سوى نجاة من الماضي ...

ارادت أن تحرر أمامها من كل هذا الماضي ، فلما تكلم عرفت أي امرأة كانت عاجزة لتشترى من أي رجل آخر ما لا يستطيع زوجها ان يقدمه لها ، وتشترى سهولة ... وكل شيء كان له عندها لمس ... وحاجته حتى في بيته وهو نائم ... وكرهها وكرهه ... ثم عاد يوما من المصنع فوجدها منغمسة على ارصفة المطبخ ، وعندما اوشك أن يصل بها لطبيبه بان الطفل ليس ابنه بل ابن رئيس عمال في المصنع منحها الملح اللازم لزواجها من « الثوبي » الذي ليستر به من كلام الناس ، وكان يجري على الطفل بنفقة شهرية طوال السنوات الثماني التي عاشها هو في عمله

عندها لم يضرب ولم يقتل ولم يسأل شيئا ، بل نزع نفسه من المسمار ورحل ... صار مجهولا يبحث عن المجهول ؟

عرفت قصته كاملة وملكت ماضيه كما ملكت حاضره ؛ وصار له عندها معنى كبير عندما انقذها في المساء من فتك زوجها الذي هاجمها بوحشية منطلقة عندما رأى الثوب الصيفي والملاءة العاريين ، فتصدى له « البوني » وجاءه من عنقه الى غرفته فدفعه فيه واغلق الباب عليه بالمفتاح ، وعاد الى المرأة الجاثية على الأرض وهي تدعك ذراعيها التي لواها المجهول ، وكان لونها قد انسحق صدره حتى الحرام ، فحركته أخيرا ... يدها بذراعيه وضمها راغبا لمصها وتعودها في وعي الى نسمة هواء ...

وفي الليل صحا المجهول من نومه على ضحكة لم يسمع في حياته مثلها ، واراد ان يخرج ليتبين ... ضحكة المرأة ، لكنه وجد الباب مغلقا بالمفتاح كالعادة ، فركل الباب وهو يناديها فلم يسمع ردا ، فهي الآن ليست في سريرها ... انها في مكان آخر ، سعيدة تضحك !

وفي الصباح اختفى بعد أن غرق في هذه المرة البلع البسيط الذي يملكه فلاح المزرعة المحور الطيب ، وتصدته على طريق القرية جماعة من الصود منها وجاءه ، ليموه حرمات احلوا بها كل ما معه من نقود ، ثم استرطوا عليه عندما توسل في طلب المزيد من الخمر أن يأكل روث الخيل ، ففعل ... ، وعاد في اليوم التالي دون أن يبحث عنه أحد ، وحسبه عليه بالكدمات ...

لقد ضحكت امرأته في الليل !

— ٤ —

... مرت الأرض بمحصول طيب وتحرك في بطن المرأة جنين عمره شهران

ولم يكن عسيرا على المجهول أن يعمم ، وهذا يفكر في الاسعام عندما مر بالمصادفة على مدية قديمة لم تستعمل منذ عهد بعيد ... اليس من حق الزوج اذا كان مريضا ، محبته زوجة لتستمع حديثها ، أن يقتلهو بال عطف الصحف والناس والعاشق ؟

لكنه امام الاقدام على فعل الانتقام كان يكص ويرتعد ويحن ...

أن صوت الرصاصة مخيف ! ...

وقد يفشل في التصويب فيجرح هذا الرجل القوي ولا يصيبه مقتلا ! ...

واستمر يوما خروج « البوني » بسلطته للاحتطاب من الغابة وافتك يتضحك بامرأته ، ولكنها في هذه المرة لم تتردد في ضربه على رأسه بكتلة من الخشب المعد للحرق في المدفأة ، فسقط أمامها وظل ملقى على الأرض بلا حراك حتى صبت فوق رأسه سطلا من الماء البارد ...

... ته من قدميه ، ونظر اليها مليا ، ثم رحب ...

وأخيرا اعتدل واقفا وهو يقذفها بنظرة ساخرة متكررة ، وانطلق خارجا ووجهه مطبوع بعرجة مجهولة ...

انطلق نحو الغابة ووضع في البندقية خمس رصاصات ، وعداه الى مكان مقرره من الغابة صوت البلطة ...

وتقدم حتى صار على مسافة قريبة وراء ظهره ، ومن مكمنه وراء صخرة احتبس في الصدر أنفاسه أن يصطدم ، ثم انطلقت الرصاصة ..

وانتهت « الدوي » في دهشة وبلطته لا تزال في يده ، وصوت الطلقة تردد صداه من صخرة الى صخرة ، فلمح فوهة البندقية والوجه الشاحب المتقلص خلفها ، ولم يفكر في الهروب او الاختباء ، بل تقدم على مهل ببلطته نحو عدوه ، وقميصه الأبيض يلمع في ضوء الخريف ..

ومرة أخرى ضغط حامل البندقية على الزناد ، فانصبت على قميص حامل البلطة في هذه المرة بقعة من الدم ، ثم تهاوى . فاندفع الآخر نحوه وبندقيته في يده ، وسد فمه الذي بدأ يكسب حذائه ..

غاص الرأس في الأرض الرخوة ، والتفت الذراعان في محاولة يائسة لانتزاع الحذاء من فمه ، ثم حدثت المعجزة فترك القاتل بندقيته تسقط من يده وسحب قدمه واسرف عليه وهدة عميقة ..

وكانت المرأة في البيت قد تعودت لسماع صدى الطلقة الأولى الذي أطل برأسه المتأوب من فوق سطح المنزل ، فلما سمعت الطلقة الثانية خرجت تعدو نحو الغابة وهي شاحبة شحوب الموت ، يتبعها من بعيد فلاحها العجوز الذي عهد بواه الربو الزمن .. فالتقت المرأة بزوجها عائدا يثب على صخور الصخور ، وتوقف لحظة كمن يفكر في الفرار ، لكنها سألته ..

ـ أين هو ؟

فأشار بيده الى ما وراءه ، وانطلقت المرأة دون أن تنظر اليه ، واذا به تبعها كالمسحور

دون أن تقوى على مقاومة القلق التي أحدثتها في نفسه مرارة اليأس الناطقة في وجهها ، وما لبث أن رآه ومرضه وانتحب واحتضنت الرأس الميت بين ذراعيها والمد الهامد في يدها ..

ورأت البلطة والصدمة فوق الأرض ، وبصوت هادىء سألت زوجها الذي كان يقترب وهو يمسح فمه بظهر يده :

ـ أنت من فعل هذا ؟

وأدهشه هذا الهدوء لكنه رأته حدوه ودنا منها وقد وجهه الرشد كمن يمص التشفي في لهيب الألم الذي سكن وجهها ، وقال بصوت بعضه فرح وحشي

ـ هو أنا ، الآن ، صدقتك ؟

أراحت المرأة الرأس الميت على الأرض وتناولت البلطة في يدها ووزنتها في هدوء كما لو كانت تتعرف الى ثقلها ، ووقفت ..

وحشدت قبضتاه كل قواها ورفعت البلطة في ثقة باردة وأهوت بها على ذلك الوجه الشاحب فسمعت تحطم الجمجمة المفلع تحت الضربة ، وعندما هوى وانكفأ الى الأرض ضربته مرة أخرى في صدغه حتى تستوثق من موته ، وعلمت أنها ستندم طوال حياتها على أنها عندما ضربته في الصباح بالحصاة لم تصرعه ..

ودون أن تلقي عليه نظرة انسحبت واحتضنت رأس حبيبه في حضنها ، وضمت ساقه المتقطع حنة بروحها قبل أن تسحب فلاحها الشيخ الى القرية ليعلن فرار المعتوه الخطر بعد أن قتل خادم المزرعة ..

وأراحت الرأس الميت فوق ركبتيها واستغرقت ، هائمة النظرة في الأرض التي رواها دم حبيبها وكساها بالربيع المضيء ، لكن النظرة كانت في هذه المرة ميتة